معلمة أم مهندسة: التعليم وهندسة ديكور للحكي

كريمة ناصر

كم تختلف أحلامنا عن واقعنا الذي نعيشه، فلم أحلم يوماً أن أكون معلمة، كانت أحلامي دائماً أن أكون مهندسة ديكور، فأنا أحب الرسم والتصميم. منذ صغري، لم أرَ مهنة المعلمة مثيرة للاهتمام، فالمعلمة كانت دائماً تحكي وتحكي وتحكي دون أن تفسح لنا المجال للحديث. كنت دائما أقول: «لو كنت معلمة، لكنت أكثر ديمقراطية، واستمع لكل رأي داخل الصف، وعندما كانت تكلفني إحدى المعلمات بتدريس طالبة ضعيفة، كنت أقول في نفسي: «أف ما هذه المهنة التي أشرح فيها الدرس مرات ومرات دون جدوى». فقد كان نصيبي دائماً مع أضعف طالبة في الصف، فلم أكن أجد لمجهودي معها أية ثمرة، لذلك كرهت هذه المهنة.

ولكن الأقدار شاءت أن أتزوج قبل دخول الجامعة. ومن هذه النقطة تغير كل شيء، وأخذت حياتي منحى آخر، فأصبح جل تفكيري في تعليم يكفل لي وظيفة تناسب وضعي؛ كزوجة وأم، شأني في ذلك شأن أي أم تفكر في العودة لأطفالها وبيتها مبكرة؛ لتقوم بأعمال البيت، وتدريس أطفالها. فمهنة المعلمة هي الوظيفة الأنسب لما لها من مزايا بالعودة المبكرة والإجازات الصيفية، لذلك درست التربية الابتدائية؛ لأكون معلمة، فأنا أحب الأطفال والتعامل معهم.

وتمر مرحلة الجامعة، وتخرجت منها، وبصورة سريعة ومفاجئة وغير متوقعة حصلت على وظيفة، فلم أكن أدري ما هو التعليم؟ وكيف أتحمل مسؤولية مجموعة من الطالبات، ويقع عبء تعليمهن على كاهلي؟

بدأ يومي الأول في المدرسة، وأنا أشعر بالفرح والاعتزاز بالوظيفة، ويخالطهما شيء من القلق والتوتر، هل ما تخيلته هو ما سأجده داخل المدرسة؟ أفكار كثيرة تجول في رأسي، استجمعت شجاعتي، وبدأت التعرف على مرافق المدرسة، وعلى طالبات الصف الثاني الذي كانت تجربتي الأولى معهن، وذهبت لأجلس بين المعلمات، كالغريب الذي ينتظر أن يبادره الآخرين الحديث، ولكن سرعان، ما انخرطت معهن وأحسست أنني أنتمي إليهن منذ سنين.

أعطتني المديرة دفتر التحضير، نظرت إليه، وكأنه امتحان يجب إجابته؛ لأثبت نفسي كمعلمة من خلاله. أخذت الدفتر وأنا أنظر إليه، هل ما سيكتب في هذا الدفتر هو عملية التدريس فعلا؟ هل سيتم تقييمي من خلال هذا الدفتر؟ ماذا لو لم أستطع إجادة التحضير، هل ستكون حصتي فاشلة؟ الكثير من المخاوف حيال هذا الدفتر العجيب الذي جعلني الآن أبدو معلمة، أخذته وذهبت إلى البيت، وحاولت التحضير لدروس اليوم التالي، ولم أنجح في ذلك، فلجأت إلى معلمة زميلة ساعدتني، فبدأ الأمر أكثر سهولة، فنحن دائماً بحاجة إلى من يرشدنا، ويمد لنا يد العون.

وبعد مرور بضعة أيام، بدأت المعلمات بالتحدث عن المشرفين وزياراتهم، فقالوا لي من الآن فصاعداً، يجب أن تكوني مستعدة في أي لحظة لزيارة أحد المشرفين كي يقيم الحصة في نهايتها، حيث يقومون

بإرسال تقرير يحمل تقدير كل معلمة، وأنت ونصيبك، وهل سيحضر الحصة مشرف معتدل أم مشرف متزمت في أرائه. وعلى الرغم ما قلنه فلم أشعر بالخوف، ولم يعنِ لي ذلك الكثير، ولم يترك أثراً كبيراً في نفسي، لأنني كنت دائماً مستعدة للتحضير واستخدام الوسائل التعليمية من لوحات وبطاقات وشفافيات وكل ما يلزم الدرس.

جاء المشرف ذات يوم وأخبرني أنه سيحضر حصة اللغة العربية، شعرت وقتها بأن هذه الزيارة هي زيارة إرشادية، في تلك الحصة كنت أشعر بنفسي ملكة أو ربما فراشة تحوم حول الطالبات، أنوّع في أسلوبي واستخدم كل الوسائل التي أعددتها لتلك الحصة، حيث كانت حصة تدريبات في اللغة العربية، لذلك بدأنا بالتمهيد للحصة بقراءة الدرس، ثم عرضت بعض الشفافيات في التدريب الأول، واستخدمت في التدريب الثاني، لعبة ساعي البريد، حيث كنت أنا الساعي الذي حمل البريد، وأغني أغنية ساعي البريد، وأوزع البطاقات على الطالبات، ثم استخدمنا الكتاب والسبورة في التدريب الثالث، وأنهيت الحصة بتقييم الطالبات، وبعد الانتهاء من الحصة خرجنا من الصف وهو يمتدحني، بصورة شعرت فيها إني خلقت؛ لأكون معلمة، ويجب ألا أندم على كوني معلمة، وقال لي أنتي معلمة مجتهدة، وكل ما فعلته في الحصة كان متقناً، وأنها من أجمل الحصص التي حضرها على الإطلاق، ثم قال: «لكل مجتهد نصيب من هذه الحياة، وإني حظيت بنصيب كبير من العلم والمعرفة والتنوع في الأسلوب». فقد كان ذلك ثمار دراستي سنوات طويلة، وخبرة اكتسبتها مع مرور الوقت، إضافة إلى ما تلعبه الدورات التعليمية في المنهاج والوسائل التعليمة من دور كبير الأثر في تنوع الأسلوب واكتساب الخبرات.

ومن عبارة «لكل مجتهد نصيب»، بدأ التحول وبدأت نظرتي للتعليم على أنه هواية يجب أن يعطي فيها المعلم كل ما يملك: يصدر القرارات والإحكام، يكون مرناً تارة، وشديداً تارة أخرى.

من تلك الحصة، أدركت أن التعليم عملية تكاملية بين المعلم والطلبة والمنهاج، وأن الدور الأكبر ليس للمعلم، كما كنت أعتقد عندما كنت طالبة، ولكن الطالب هو المحور، وليس المعلم فجل اهتمام المعلم وقدرته يجب أن تصب نحو خلق طالب متميز مبدع، وأن الطلاب بخبراتهم البسيطة ومواقفهم العفوية التي تحدث في الصف هي إحدى مصادر زيادة خبرة المعلم وقدرته، وبعد ذلك فوجئت بتقريري يحمل درجة جيد فاغتظت كثيراً، وذهبت لأسأل المشرف، لماذا هذا التقرير، فيقول لي: «إن معلمي السنة الأولى، لا يحظون بأكثر من ذلك، وإن حصولي على هذه الدرجة إنجاز كبير، ومن هنا تبدأ خيبة الأمل، وسألت نفسي أين نصيبي؟ وأين الاجتهاد الذي حدثني عنه؟ وهل هذا القرار صائب، وكانت خيبة الأمل كبيرة لدرجة الإحباط وعدم الرغبة في العمل؟ ولكن سرعان، ما تذكرت طالباتي، وان عملي الأساسي هو معهن داخل غرفة الصف، وليس من أجل تقرير إشرافي أو غير ذلك. وأدركت أن نجاحي يكون بنجاح طالباتي وتفوقهن بالدراسة، وهذا ما عاهدت نفسي عليه، وأن يكون هذا شعاري، حتى النهاية، ومن سنتي الثانية في التعليم وحتى الآن، وأنا أحصل على تقرير جيد جداً، ولكن ذلك لم يعد له قدر كبير من الأهمية لأني أدركت أين هو التقييم الحقيقي.

والآن، وبعد هذه التجربة، تعلّمت أن المعرفة، لا تقف عند حد معين، وإنما دائماً بحاجة إلى البحث والتطوير، وأن الثمار الحقيقية للغرس الذي نغرسه في طلابنا، هو بمقدار ما يمتلكه الطلبة من علم ومعرفة وقدرة على توظيف العلم في الحياة العملية، لا أنتظر من يقيمني لأعرف إن وصلت إلى مبتغاي أم لا.

مدرسة دير قديس الأساسية-رام الله

من إحدى زيارات المعلمين البريطانيين إلى المدارس الفلسطينية.